بقلم : ثروت أباظة

تفضل يا سيدى بالجلوس - لا لن تجد مقعدة خالية . ان المقهى الآن بالذات لا تخلو فيه مقعدة . لعلك لا تعرف هذا المقهى يا سيدى ، انه مقهى الموسيقيين وافراد الكورس وهم الآن يتناولون غداءهم ليعودوا الى الاذاعة وهكذا تجدهم يرحمون المقهى فى هذا الوقت بالذات يرحمون المقهى . ثم هم اذا فرغوا يجلسون هنا ايضا ليجدهم من يريدهم فى عمل ... لماذا تظل واقفا يا سيدى ... تفضل يا سيدى بالجلوس . لا . لاتدهش انى كلمتك دون سابق معرفة فانى كثيرا ماراءيتك ، وجهك مالوف بالنسبة لى . ثم انك ستسدى الى معروفا كبيرا اذا جلست فانى اريد ان اتكلم ... اريد ان اقول وكل هؤلاء سمعوا ما اريد ان اقوله ولكنى مع ذلك اريد ان اقوله مرة اخرى تفضل بالجلوس واعدك انك لن تشعر بالملل فحكايتى — على كل حال — لاتجلب الملل ... شكرا ... والآن هل تامر بقهوة ام بكازوزة ... انا الذى سادفع فانه يسعدنى ان احد من احكى له ... لا شك انك تريد عبد المنعم قاصد ... انت شاعر

وهو يلحن لك ... أليس كذلك ... نعم انا متأكد ... سيأتي عيد الميلاد حالا .. كاروزو ؟ حسنا ... ياكوشه ! ياكوشه ، زجاجة كاروزو وحسابها عندي ، وعجل يا كوشه اتريد أن تسمع الآن ، اولا احب ان اعرفك بنفسي . انا ياسيدي جزء على عشرة من انسان واحيانا انا جزء على عشرين من انسان واحيانا . ولكن قليلا ما اصبح جزءا على ثلاثين من انسان ! وعلى كل حال انا لست انسانا كاملا لم أكن كذلك في يوم من الايام ! تصور أنني حتى وأنا في بطن أمي كنت نصف انسان . نعم ان لي اخا توأما شاركني المكان الوحيد الذي كان يمكن أن أكون فيه انسانا كاملا ، واحدا صحيحا ! وحين ولدنا الى الحياة ظللت احس انني لست انسانا كاملا ! العجب ان هذا الشعور لم يكن يراود أخي أبدا كنت اسأله

ـ أتحس انك انسان كامل

فكان يقول في عظمة وبهاء

ـ كامل ونصف

يظهر أن الشعور بالكمال تسرب اليه جميعا ونحن في بطن أمنا ولم يبق لي منه شيء !

وأكدت الحياة معنى هذا النقص في نفسي ، لم انفرد بشيء أبدا ، كنا اذا أكلنا تقاسمت انا واخي الطعام ، واذا ما اشتري لي لي شيئا كان لابد ان يشتري نفس الشيء لأخي كنت أخشى أن ينسى يوما ويحضر لي فردة حذاء ولأخي فردة حذاء ، وذهبنا الى المدرسة . وكان أخي ذكيا يحسن المذاكرة ويحسن الاجابة على المدرس ويحسن الاستماع ويحسن أن يجعلهم يقولون عنه انه تلميذ ممتاز . وكنت في أول عهدي بالمدرسة مثله ، ولكن حين تقدمت بي السن والدراسة بعض الشيء نبتت في رأسي فكرة لا أدري ماتاها ، ، جميع الافكار تأتي من حيث لا ندري ولكنها تؤثر في حياتنا حتى نهاية الحياة ... مصاير الانسان يا سيدي مرتبطة بفكرة كهذه الفكرة التي نبتت في رأسي ونفذتها .. تصور ياسيدي مجرد فكرة طيف من طين ، لمحة من أوهام ، ظل من رأي ، مجرد

فكرة فادا أنا الذى تراني اليوم وادا أخي - والعقبى لآمالك - مدير خطير يحسرك بسيارته عشرات من الكيلومترات من أمثالي ... كانت فكرة ياسيدى ... لا ... لا اريد أن أكون مثل أخي اريد أن أكون ... أنا .. أنا ... أنا ... فقد بحثت عن أنا هذه كثيرا وقررت مادمت لم أجدها - أن أخلقها أنا ... وخلقتها يا سيدى فادا هي هذا المخلوق الشائه الذى تراه الآن أمامك ... جزء من عشرة من انسان أو جزءا من عشرين أو جزءا من ثلاثين ... كانت فكرة مجرد فكرة ... كثيرا ما تطوف بأذهان أقوام لكنهم لم يعتنوها ، وأنا أنا ... أنا ... اعتنقتها ... قلت في نفسي لن أكون صورة لأخي ... لا لن أكون ... سأكون أنا منفردا في كياني لا أماثل هذا الأخ فيما يسعى اليه من آمال ولا فيما يسير فيه من طريق ... لأكن شبيها له في الحلقة ولكني لن أكون شبيها له في الآمال والأحلام ... كنت قد عليت أن أكون نسخة كربون من أخي ... كانت فكرة ... لو تركتها تذوب مع الأفكار الأخرى التي تراود عقلي ، لو أني لم أتمسك ... لو ... بعيصة ... لو ... هذه ياسيدى الشاعر اليس كذلك ... اتعجبك ... لو ... هذه ياسيدى ... أنها لفظة الحسرة على ما فات والألم على الماضي .. لفظة لا تحمل الا اليأس ... لعلك تحبها في شعرك لا أنها تعطيك الغرض للظهور بمظهر الحزين الأسى ... هذا المظهر الذى يحب الشعراء دائما أن يتحلوه ... أكره أنا ... لو ... هذه ياسيدى ... لو كنت تركتها تذوب لكان شأني غير شأني ... المهم أني نفذتها ... أهملت المذاكرة وكنت أجاهد الا التفت في الحصة وأجاهد أن أجعلهم يقولون عني تلميذ فاشل اتعرف ياسيدى أنني لم ألاق النجاح الا نادرا في حياتي ... أقول نادرا لأخادع نفسي ... الحقيقة أنني لم ألاق النجاح الا في هذه المرة ... نجحت يا سيدى في أن أكون تلميذا فاشلا ... نجحت في ذلك نجاحا جعل أبي ينتهي الى اليأس الكامل من أن أكمل دراستي ... وأخرجني ...

كان يومي الأول مع الفراغ وملائي في المدرسة يوما عجيبا بالنسبة لي ياسيدى حتى لقد خطر لي أن

اعدل عن فكرتي واعود الى مدرستي ولكن هذه الفكرة ... فكرة العدول يا سيدي سرعان ما ذابت وتلاشت ورحلت الى حيث لاادري ولاتدري أحد ... اتعرف اين تذهب الأفكار ياسيدي ... لامالطيك تعرف ، بل مالطي أن أحدا يعرف . قضيت اليوم وحيدا ؛ ولكني كنت فردا ... شعرت بالتوحد . لم أحد نفسي بين صفوف التلاميذ ولا وجدت نفسي جزءا من جماعة ؛ بل وجدت نفسي فردا كاملا ولكن لسبب لاأدريه لم اشعر بهذه الانفرادية وانما شعرت بالضياع ... كم هو مر مذاق هذا الضياع ياسيدي حتى لقد اضاع على شعوري بالتفرد .

وكان لي زميل سبقني الى الطريق فذهبت اليه عوجدته قد حقق آماله في كسحة يحملها وتخرج له أنغاما وكان سعيدا ، واصبحت في أيام افلاسي وأنا لاعمل لي الا ان استمع للموسيقى التي ترسلها كسحة صديقي الذي سبقني الى الطريق ... لا لم أكن حينذاك اقدر النغمة الحلوة ولا النغمة الرديئة . وانا كنت استمع ... اتشرب فنجان قهوة ... يسعدني ان اقدمه لك ... اتشربها مضبوطة ... باكوشة فنجان قهوة مضبوطة ... لا ... لا تشكرني ... فانه يسعدني ان اقول ... جيل الى بعد حين انني استطيع ان اقدم النغمات ؛ ورحت استحسن موسيقى صديقي ، ونسينا فنسينا واتتني الجراة ان اصدق وما لبثت ان عبرت ... نعم كنت اغني مع موسيقى صديقي وقال صديقي الله وحين سمعتها وجدت « أنا » التي كنت ابحث عنها ... وجدت نفسي احس بالتفرد ياسيدي اصبحت اغني واحد من يقول الله ...

وتمسكت بلحظة الاستحسان هذه واسترسلت. ... غنيت ، وكان صديقي يدعو بعضا ممن يعرفهم ويعرف هو واغني أنا ... والعجيب ياسيدي انهم كانوا يقولون الله ... لاادري اي داعٍ كان يدفعهم الى قولها ... اصبحت الآن لاأدري ... أما في ذلك الحين فقد كنت واثقا ان صوتي وحسن ... كنت واثقا ياسيدي ولاادري كيف استطاع صديقي أن يدبر لنا ليلة نغني فيها في فرح ... فرح كامل يحلس فيه المدعوون

والعريس والعروس واضعي انا ويعزف هو على كمنجه ويعزف آخر على عود وبوق ثالث على طبلة .. واضعي ... وضجيت ياسيدى وقال الناس الله ... لا لم يكونوا ساحرين ... قالوا الله ولكن ماافعل ماقالوها ... ان هى الا دقيقة او اثنتين واذا بالكراسى تقذف الينا واذا القرح يصبح ميدانا للمصارعة واذا نحن واهل المصى والموسيقى سلمس مخيبا نحتمى فيه ولكن كائنا كان المدعوون لا يريدون أن يضربوا أحدا الا العازفين .

نجونا بحياتنا ولكن لم ننج من الجروح والكدمات صح القهوة هنا يا كوشه ... هل الماء بارد ... شكرا ياكوشه ... العجيب ياسيدى ان هذه الحادثة كانت تتكرر فى الافراح التى تدعى الهابطرية منتظمة لاتخطىء ... لم تكمل حفلا ابدا . ينست يا سيدى . وكفرت بالتعرد وكفرت بنفسى وكفرت بكل شىء الا السماء .. اتعرف ياسيدى أن فكرة الكفر بالسماء لم تخالجنى ابدا ... ان عقلى لايتصور أن السماء تتركنا ، كما لايتصور عقلى ان يكون هذا الكون البديع من غير خالق ولايتصور عقلى ان تكون هذه الدنيا هى نهاية القصة .. انا مؤمن بالله وبالحياة الاخرى ، ولم أفقد ايمانى هذا فى أشد الاوقات حلكة وسوادا . مات ابى ياسيدى وانا اقطع طريقى فى الفشل . وارتدت الدنيا سوادا امام عينى ولكنى لم أكفر بالله ... وفجاة قال صديقى صاحب الكمنجة انه تعرف على شخص يستطيع ان يجعلنى اغنى وحين سالته « ولايضربنى المستمعون » قال « ولايضربك المستمعون » قلت «كيف ؟» قال « سمعنى فى كورس » كورس ؟ واعود شخصا غير كامل مرة اخرى ... طلبت اليه الا يذكر هذا العرض امامى ... طلبت منه ذلك فى صلف وكبرياء .. ولكن قليلا مادام هذا الصلف وذلك الكبرياء ... كان ابى موظفا وكان يعولنى وهو حى ولكنه حين مات لم يترك لى شيئا الا خوفى ان اشعر باننى انسان لايكتمل الا بغيره ، جمعت ياسيدى قذهبت الى صديقى ولم ينتظر ان اطلب .. يبدو ان منظرى وحده كان كافيا ، واصبحت احد افراد الكورس اغنى مع غيرى ولاينبين احد صوتى انما انا صدى بين الاصداء ظل يختلط بظلال حزء على عشرة

او عشرين او ثلاثين من انسان ... انسان لايعرف جنسه فهو خليط من رجال ونساء واطفال احيانا . ولكني لم اعد جائعا وان عدت الى شعوري بعدم الاكتمال لا ياسيدي ان قصتي لم تكتمل . كنت ياسيدي ملزما ان اشتري بدلة سهرة ... كنت ابدو فيها انيقا . فحين كنت اغادر منزلي وانا لابسها تسارع بنات الحارة الى النظر من الشبابيك وكنت احس بالزهو في داخلي ... وهو سرعان مايزاملني حين اجد نفسي اكمل الانسان الطل في الحفل . ولكن فتاة من بين اولئك الفتيات اعجبتني وخطبتها وتزوجتها وعشنا معا سعداء اول الامر ... لم تكن تعرف معنى اسمي كورس ... لم تكن تتصور انني حر من ظل انسان ... حتى جاء التلفزيون فكانت ترائي فيه ... اجل اشتريت جهاز تلفزيون اشتري فلعلك لاتعرف ياسيدي ان مهنتي تدر علي ربحا لابأس به ... ارى السيارة التي هناك ... هي قديمة نعم ولكني املكها ... رأتني زوجتي في التلفزيون ... رات المهنة التي امتهنها ... سيدي عدت يوما من احدى الحفلات فوجدت زوجتي قد غادرت البيت وحين ذهبت اليها احاول ارجاعها .. قالت اريد شخصا موجودا لا ضائعا خائفا لاتبين ... اريد انسانا لاجزءا من انسان ... ما حزنت يا سيدي ... لقد تركت انا قشرة الحزن من زمن بعيد .. انما اقص عليك لاني لم اعد اجد حزنا فيما اقص ... لا سيدي انا لست سعيدا وانما انا قانع ... لاتصدق ياسيدي ان السعادة هي القناعة ... وانما القناعة هي الشقاء ... هي ركود ياسيدي ولكني ارتضيه ... ارتضيه لاني لاأملك له دفعا ولاحيله حولا ... ماذا ياسيدي الا تنتظر عبدالمنعم قاصد . لابد انه قادم الآن ... لابأس ياسيدي ... امرك ... ساخبره بقدومك .. مع السلامة ياسيدي ... مع السلامة ... ياكوشة ... ياكوشة كم تريد .. نعم كازوزة قهوة ... وهذه خمسة قروش لك ياكوشة شكرا ياكوشة .